أنا وطفولتي

ريما هلسة

كوردة تنمو شيئاً فشيئاً، وتجعل للمكان منظراً ورونقاً جميلاً يدهش عين الناظر ما دُمت تحافظ عليها، تلك هي الصداقة. أذكر أن أول أيام اللقاء كان في الصف الخامس، حيث جاءت طالبة اسمها «فاطمة» إلى الصف مع والديها، ليتساءل الجميع عن الوافدة الجديدة.

أذكر في تلك الأيام أن الحظ حالفني في أن أصبح رفيقة لزميلة الصف الجديدة، وأعترف بذلك لروعة الصداقة التي نمت بيننا فيما بعد.

في أحد الأيام، حصل معي موقف بسيط مع صديقتي الجديدة فاطمة، ولكنه كبير بالنسبة لطفلة، لقد كانت، بالنسبة لي، تلك الصديقة التي أحببتها كثيراً، ووجدت معها كل معاني الإخلاص والمحبة والوفاء. طلبت مني في أحد الأيام طلباً بسيطاً؛ وهو أن تستعير كراستي المدرسية، وهي دفتر تلخيص لمادة اللغة العربية، كنت أقوم بتلخيص كل ما تقوله المعلمة بشكل وافٍ فيه. فكرت وقتها أن لدى صديقتي أُخت صغيرة قد تمزق كراستي، ولكني قلت لها سوف أعطيك كراستي يا صديقتي ولكن أرجوك حافظي عليها جيداً، دون أن أشعرها بأنني خائفة على كراستي من أختها احتراماً لمشاعرها.

قالت لي: أعدك بذلك، وسوف تكون كراستك في اليوم الثالث أمامك. جاء اليوم الثالث وأنا أنتظر الكراسة، انتظرت يوما آخر ومن ثم سألتها: أين كراستي يا صديقتي؟ هل نسيتها؟ قالت لي: لا، وإنما بقي لدي القليل من الصفحات سأكتبها وأعيدها لك فوراً. اطمئن قلبي قليلاً، ولكنني في الوقت نفسه شعرت كأن هناك شيئاً يثقل صدري. انتظرت يومين آخرين، وسألتها: أين دفتري يا فطوم؟ سوف تقترب فترة الامتحان، وأنا أريد دفتري. فقالت لي: يوماً واحداً فقط وسيكون بين يديك. شعرت بالخوف الشديد، وانتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، إلى أن جاء وجاءت معه صديقتي تقول لي: يا صديقتي اسمعيني ... لم أستطع أن أنقل عن كراستك حرفاً واحداً، قلت: ماذا تقولين؟! قالت: أنا أعتذر منك جداً لقد خنت الأمانة. قلت لها كيف؟ اشرحي لي أكثر. بدأتْ بالبكاء الشديد وقالت لي لقد مزقته أختي، فقلت لها: ماذا تقولين؟ ألم أقل لك بأن هذه أمانة حافظي عليها جيداً. قالت: نعم، ولكن لم يكن باستطاعتي المحافظة عليه، لقد فشلت في ذلك، فأنا آسفة جداً جداً.

مع أنني شعرت بالخوف من أن تمزق كراستي، إلا أنني لم أتوقع أن يحدث ذلك فعلاً، وكانت حالتي النفسية سيئة جداً لم أستطع إكمال ما تبقى من حصص دراسية، وبخاصة بعد رؤيتي كراستي وهي بحالة سيئة، فذهبت إلى مديرتي وطلبت إذن الخروج من المدرسة، فسألتني: ما بك يا طالبتي الحبيبة؟ شعرت بالإحباط لأنني أحببت مدرستي كثيراً، ولم أتغيب عنها إلا لظرف طارئ، فكانت إجابتي لها: اتركيني أذهب من فضلك. وقامت المديرة بالاتصال على والدتي، وجاءت إلى المدرسة وسألتني ما بك؟ لماذا تريدين أن تعودي للبيت؟ فأنت تحبين المدرسة، أجبتها: دعيني أغادر معك وسأحدثك لاحقاً عن الموضوع، فذهبت مع أمي إلى البيت وتحدثت معها بشأن ما حصل، حزنتْ عليّ كثيراً، وقالت لي: لا بأس أنت مميزة في مدرستك، وكل طالب عرضة لأن يفشل في حياته، فعليك أن تكوني قوية كما أعرفك، أنا ومديرتك ومعلماتك وصديقاتك، وبإرادتك، وقوتك، وصبرك ستجتازين هذه المرحلة، وسامحي صديقتك التي لم تعتنِ بالكراسة.

علمت المديرة من المعلمات وأمي عما حصل، وقالت أمي للمديرة لقد علمتها بعض المواقف والنصائح من ذلك الموقف. وشكرت المديرة أمي جداً وطلبت منها مسامحة صديقتي عما فعلته.

في اليوم التالي، جئت إلى المدرسة وأنا أقل حزناً، مررت عن صديقتي فقامت بضمي وتقبيلي على رأسي وبكاؤها بكاء شديداً لدرجة أنني بكيت معها، وقلت لها: الله يسامحك دنيا وآخره، ولكن يا صديقتي أنصحك نصيحة: حافظي .. حافظي .. حافظي ولا تهملي أي شيء، حتى لو كان بسيطاً وصغيراً، كوني على حذر في تعاملك مع أختك داخل البيت. فقالت لي: نعم يا صديقتي، أنت رائعة جداً، وأنا أحبك كثيراً، أريد أن أهديك شيئاً، فقلت لها: لِم؟ لا أريد شيئاً منك، فصداقتك أجمل وأروع هدية لي، فقالت: دعيني أقدمها لك، تفاجأت كثيراً وقلت لها: ما هذا؟ قالت: هذه كراستك، أتمنى أن تنال إعجابك. قلت ماذا؟ كيف حصل ذلك؟ قالت: كنت أتأخر بعد دوامي من المدرسة حتى ألخص لك كراسة مثل كراستك السابقة، لقد عانيت كثيراً في جمع المعلومات بهدف أن تكون مطابقة لمعلوماتك الموجودة في كراستك. أريد أن أشكر كل من ساعدني في محنتي الصعبة والكبيرة من معلماتي ومن زميلات الصف، فقد تعبت كثيراً وأنا أجمع هذه المعلومات، وأتمنى أن تسامحيني كثيراً عما صدر مني.

فكانت ردة فعلي في بكائي، بكيت كثيراً وعانقتها وشعرت بالحزن الشديد اتجاهها، وقلت لها: أنت أيضاً سامحيني يا صديقتي، وهكذا انتهت قصتنا بكل حب ومصداقية.

استمرينا في دوامنا المدرسي حتى الصف الثاني عشر، وافترقنا بعدها، إذ نجحت بامتحانات الثانوية العامة ورسبت صديقتي فيها. ذهبت إلى منزلها وقلت لها نجاحي هو نجاحك وأنا أهديه لك ولأمك ولكل العائلة، وجلست معها في هذا اليوم، يوم فرحتي أكثر من جلوسي مع أهلي. كانت صديقتي متأثرة في البداية، ولكن، بفضل الله، تجاوزت ذلك من خلال وجودي إلى جانبها.

بعد ذلك انتقلت إلى مرحلة الجامعة، سجلت في جامعة القدس أبو ديس، خرجت من جو الدراسة المفرح جداً بالنسبة لي، لأنه كان بمثابة البيت الثاني. شعرت بالخوف والارتباك عند دخولي الجامعة لأول مرة مع زميلات مدرستي. لم نكن نعرف ماذا تعني الجامعة، ولكن عائلتي وإخوتي حدثوني عنها، واطمئن قلبي، وقلت لنفسي: لماذا أخاف، بإمكاني أن أعتمد على نفسي وأحصل على تميز كما حصلت عليه في المدرسة. ودخلت الجامعة وأنا مصممة فقط على النجاح والتفوق والتميز. وبفضل الله، اجتزتها بتفوق، وحصلت على شهادات شرف، فرحت كثيراً بذلك، وقلت: نجاحي هو فخر لوالدي ولوالدتي وإخوتي.

أطفال روضة بيت دقو في لقاء ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة الذي ينظمه برنامج البحث والتطوير التربوي، 2016.

خلال هذه السنوات الأربع حصل معي موقف محرج، وهو أن طلب مني والدي في أحد الأيام أن أذهب إلى مكتبة الجامعة بعد إنهاء محاضرتي، لأستعير له بعض الكتب في الإدارة العامة حسب تخصصه بصفته محاضراً في جامعة الاستقلال في أريحا. ذهبت أنا وصديقتي مريم إلى مكتبة الجامعة، واستعرت له بعض الكتب، وعدنا أنا وصديقتي إلى القاعة لانتظار محاضرتنا، ووضعت الكتب جانباً، وبدأت المحاضرة وبعد الانتهاء منها عدنا مباشرة إلى البيت. وفجأة عند وصولي إلى البيت تذكرت الكتب، سألتني أمي: أين الكتب؟ لقد شعرت بالخوف كثيراً وقلت لنفسي: يا الله أين الكتب؟ ماذا أفعل؟ لقد بكيت كثيراً لأنني تذكرت أن من ضمن قوانين الجامعة أنه في حال فقدان أي كتاب جامعي عند استعارته من المكتبة لن يتخرج هذا الطالب إلا بدفع رسوم الكتب الجامعية التي أخذت من المكتبة. أخبرت أبي بذلك وقال لي: لا تقلقي ستجدينها في اليوم التالي كما هي. ذهبت في اليوم التالي إلى قاعة المحاضرة ولم أجد فيها أي كتاب، سألت صديقتي فقالت لي: لقد غادرت معك وأخذنا الحديث ولم أسألك أين كتبك؟

شعرت بالخوف والقلق ... ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟ ومرت الأيام وأنا أبحث عن الكتب، فقالت لي صديقتي «مريم» يا ريما أنا أشك بطالبة عند دخولي أنا وأنت القاعة. فقلت لها: من هي؟ وكيف أجدها وأين؟ ولماذا فعلت معي هكذا؟ هيا قولي لي، قالت لي: لا تقلقي سوف نلتقي معها في المحاضرة نفسها الأسبوع القادم. وفعلاً التقينا بها، وذهبت إليها، وسألتها هل وجدت بعض الكتب في هذه القاعة الأسبوع الماضي؟ ترددت في البداية وقالت: ماذا؟ أي كتب؟ ولكني اكتشفت أنها تعرف صديقتي «مريم»، وأن علاقتهما سيئة جداً مع بعضهما البعض، وكانت تفكر أن الكتب لها وأخذتهم لكي تنتقم من صديقتي مريم، ولكني قلت لها: أريد كتبي، قالت ماذا؟ هذه الكتب لكِ؟ قلت لها: نعم، فذهبت وقالت لي: سأعود انتظريني وجاءت بالكتب واعتذرت لي، وهذه كانت بداية السنوات الأولى من الجامعة.

في السنة الثانية، قمت باختيار تخصصي الجامعي وهو اللغة العربية، اخترت هذا التخصص فوراً دون تفكير، وسبب اختياري له هو تعلقي بمعلمتي الغالية «ميسون»، كنت أحبها كثيراً من ناحية أسلوبها، وطريقتها، ومنهجها في الحياة. كانت تمارس كل الأساليب في حصة اللغة العربية، ولم تقف على تخصصها، كانت تتفوق في جميع المجالات.

تخرجت من الجامعة وشعرت بالحزن عند فراق جامعتي، لأني سوف أفترق عن صديقاتي اللواتي تعرفت عليهن في أيام الدراسة، مع العلم أن كل واحدة منهن من مدينة ما، جمعتنا الجامعة، وفرقتنا في الوقت نفسه. استمرينا بالتواصل بعد التخرج عن طريق الهاتف، وقالت لي صديقتي وهي تحادثني في أحد الأيام: «ريما، الله يرحم أيام الجامعة»، كدت أبكي في هذه اللحظة، ولكن هذه هي سنة الحياة.

بعد التخرج أحببت أن أمارس فرصة التعليم بأن أصبح معلمة، فقدمت طلبات توظيف لمدارس عدة، وفوجئتُ بقبولي في ثلاث منها، اخترت من بينها مدرسة العودة الأساسية المختلطة، لأن أخي درس فيها، وتخرج منها، وكان يحبها ويفضلها كثيراً. جئت إلى المدرسة وأنا خائفة، كنت أتمنى أن تكون معي صديقة لي من بين صديقاتي في هذه المدرسة، ولكن خوفي سرعان ما زال بسرعة، عندما تعرفت على مديرة المدرسة «لينا الشمالي»، أعجبت بها وأحببتها كثيراً من أول لقاء، وشعرتُ بالفرح الشديد لأنها مديرتي، فهي لم تكن مجرد مديرة، وإنما إنسانة تجمع كل صفات المحبة والتقدير والتعاون والأمل والعطف، تجمع كل هذه الصفات في تعاملها مع الناس ومع معلماتها أيضاً. إنها مديرة لطيفة تحب الجميع، وتبتسم في وجه كل من حولها، ولديها ابتسامة رائعة جداً.

تعرفت على معلمات المدرسة، ولم أجد معلمة قريبة من عمري، وجدتهن أكبر سناً، وكان أمراً جيداً بالنسبة لي، لأنهن يمتلكن خبرة واسعة. جاءت المديرة واجتمعت بنا جميعاً، وقامت بتوزيع الجداول المدرسية علينا، فاستلمت أنا الصفوف الرابع والخامس والسادس، إضافة لمربية الصف الرابع. أحببتهم جميعاً، ولكني واجهت بعض المشاكل، ففي السنة الأولى واجهت مشكلة مع طفل؛ إذ كان عنيداً جداً في كل شيء، وليس معي فقط، ولكن مع الجميع. لم يكن في المدرسة مرشدة اجتماعية، ولكني حاولت منذ بدايتي أن أكون مرشدة ومعلمة في الوقت نفسه، نجحت في البداية مع ذلك الطفل، لكني فشلت معه لأنه عاد لهذه الصفة. دعيت والدته وتحدثت معها وحاورتها بخصوص ابنها، فقالت لي نعم، ابني عنيد جداً، سألتها ما السبب؟ هل تواجهين معه مشاكل في داخل البيت؟ قالت: نعم، كثيراً. قلت لها: إذا ما الحل لهذه المشكلة لأنها تواجهنا أيضاً مع معلماته في داخل المدرسة؟ حاولت الأم جاهدة أن تساعد ابنها في التخلص من هذه الصفة، ولكنه بقي كما هو. فما كان لدي إلا أن أحل هذه المشكلة وحدي ودون تدخل الأهل؛ قمت بإهماله داخل الصف، نعم أهملته ولم أعد أنظر إليه عند شرح الدرس وحل التدريبات، ولكني لاحظت شيئاً جميلاً فرحت به كثيراً، وهو أن الطالب بدأ يتجاوب معي في الصف، ولكن من دون أن يرفع يده ليشارك، ومع ذلك استمريت في إهماله، لكن

في الوقت نفسه استخدمت معه أسلوب العطف والحنان، وشجعته كثيراً، نعم نجحت مع هذا الطفل قليلاً إلى حين تخرجه من الصف الرابع. في الصف الخامس واجهت أيضاً معه هذه المشكلة، ولكن أخف قليلاً، فحمدت ربي كثيراً. فوجئت في أحد الأيام بأن الطفل ينادي علي ويقول لي أريدك قليلاً، جئت إليه وقلت له: ما بك؟ قال لي: يا معلمتي، أمي سوف تحضر اليوم إلى المدرسة لتسأل عني، قولي لها إنني أصبحت جيداً معك. فوجئت من كلامه بصراحة، وقلت له: حسناً، سأقول ذلك، ولكن أريد أن تعدني، هل أنت جاهز لتصبح أفضل؟ قال لي: نعم، وبكل تأكيد أريد أن أتحسن معك للأفضل. ونعم، وعدني الطفل وعداً «لم أكن» أتخيله في يوم ما.

وبالفعل، جاءت إلي والدته، وسألتني عن طفلها أمامه، وقالت لي: كيف ابني معك؟ هل تحسن للأفضل؟ فأجبتها نعم لقد تحسن طفلك للأفضل، وهو رائع جداً، وأنا أحبه كثيراً وأحبُ صفاته الحسنة. لقد نظر إلي نظرة فرح، ولاحظت دموعاً في عينيه، وقامت أمه بضمه وحضنته وقبلته كثيراً، لقد فرحت كثيراً وعاد الطفل إلى الصف وهو فرح جداً، وقمت أنا باستدعاء والدته إلى غرفة خاصة في المدرسة بعيدة عن عين الطالب، وجلست معها وحاورتها بموضوع ابنها، وقلت لها أريد منك أن تساعديني في هذا الموضوع، فتحدثت إليها عما دار بيني وبين ابنها من حديث قبل مجيئها، وأخبرتها أنني فرحة منه كثيراً، وسأكمل معه حتى النهاية حتى يتغير الطفل بشكل كامل نحو الأفضل أعدك بذلك، ولكن كنت أريدك أن تكوني فقط على علم بذلك. وفعلاً، تحسن الطفل كثيراً، وأصبح يشارك معي في الحصص الدراسية بشكل كبير، وتخلص من تلك الصفة، وأصبح لا يهمه إلا معلماته، ومديرته، ودراسته.

تخرج الطفل من الصف الخامس، وكنت فرحة جداً وحزينة في الوقت نفسه، لأنه لم يكمل عندنا الصف السادس، ولكنه فاجأني فعلاً فيما بعد، وأكمل الصف السادس وتحقق هذا النجاح الذي آمنت به اتجاه هذا الطالب. فرحت كثيراً لأنني فعلاً كنتُ مرشدة ومعلمة في الوقت نفسه، نعم مارست التعليم بشكل صحيح (لم أكن كاملة وإنما شعرت بذلك)، وكنت حقاً وفي الوقت نفسه أتعلم من أخطائي. نعم، هذه كانت جزءاً من حياتي الدراسية الرائعة، لقد دَرّست في هذه المدرسة ثلاث سنوات، وما زلت أعلّم فيها، وأنا فرحة جداً بها.

مدرسة العودة الأساسية المختلطة /العيزرية

أطفال روضة بيت دقو في لقاء ضمن مشروع تبادل مربيات الطفولة المبكرة الذي ينظمه برنامج البحث والتطوير التربوي، 2016.